

العلاقة بين الجنسين من خلال سورة يوسف (ع)



تشغلنا - نحن الشباب - صورة (يوسف) الشاب الجميل.. فنحن نتأمل ملامح وجهه الذي يشع حسناً وبهاءً في مرايا أخيلتنا، ولم نلتفت إلا نادراً إلى صورة جماله الروحي في وداعته وصفاء سريرته ونبيل أخلاقه وجمال عفافه.

فحتى يوسف نفسه لم يتوقف عند جماله الطاهري^١ الباهر، فلا نراه معجباً بشكله أو يعتبره قيمة بحد ذاته، ولم يدفعه جماله إلى الإحساس في أنّه مرغوب تتهافت قلوب الحسان عليه فينساق مع جاذبيته الجسدية لينجذب إلى الجنس الآخر فيخصوص في وحول المعصية، بل كان يركّز على جاذبيته الداخلية الروحية والأخلاقية والسلوكية، وهكذا وصفه القرآن: (يُوسُفُ أَيْسَهَا الصَّدِيقُ) (يوسف/ 46)، (إِنَّمَا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف/ 36).

(سورة يوسف) تقدّم للشباب وللفتيات صورة شاب اعترضت المعاشر طريقه حتى كادت أن تسد عليه الطريق.. فأزاحها عن طريقه.. لم ير وجه المعاشر الماثل أمامه.. رأى وجه ربّه في طاعته ورضاه.

هناك امرأة جميلة في كامل زينتها تدعوه^٢ لممارسة الفاحشة معها فيأبى ذلك ويستعصم رغم ما لديه من ميول جسدي كشاب في مطلع شبابه، لكنّه ربّما دخل في اللحظة الحرجة في عملية مقارنة خاطفة بين ما يمكن أن يجنيه من نزوة طارئة ولذّة عابرة، وبين ما يمكن أن يحصل عليه من نعيم خالد وسعادة أبدية يجلّ لها رضوان الله وحده.

يوسف في موقفه هذا يقول لكلّ شاب مؤمن أنّ السكره يجب أن لا تغلب الفكره: لذّة مؤقتة سرعان ما تنطفئ وتتبخر، يعقبها عذاب أليم.. ورضا شخصي طاهري مؤقت ومحدود يأتى بعده سخط الله. فكيف يكون الأنس بما هو عذاب؟ والفرح بما هو غصب؟ إنّه الترجيح بين (نشوة الجسد) وبين (نشوة الروح).

يوسف (ع) اختار الثانية.

اختار أن لا يدنس طهر روحه، ولا يلوّثه بالعهر والفحور والخيانة (قالَ مَعَاذَ اللَّهَمَّ

وسائل الإغراء:

قصة يوسف ليست مجرد قصة تأريخية وقعت مرّة واحدة وانتهى الأمر.. نعم، هي قصة لها طرائفها ولملابساتها الخامسة، لكنّ فحواها يتكرّر.. فكم من فتاة أغوت فتى، وكم من شابة استدرجت شاباً، وكم من إمرأة أوقعت رجلاً في شباكها؟ فمنهم مَنْ لبِّي واستجاب فحصد الإثم والعذاب، ومنهم من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى.. ولقد ورد في بعض الأحاديث أنّ من بين من يطّلّبُهم الله في عرشه يوم لا طلّ إلا طلّه شاب دعته امرأة إلى ارتكاب الفاحشة فأبى واستعصم.

والعكس يقع أيضاً، فكم من شاب حاول إغراء فتاة ب مختلف الأساليب، ليجرّها إلى أجواء المعصية أو مستنقع الفاحشة؟

هنا، نحن أمام حالة الإغراء التي تواجه الشبان في حياة تكثر فيها صور الإغراء وتنبع مساحتها. وهناك من يقول - كما هو رأي بعض الغربيين - "أفضل طريقة لمواجهة الإغراء هو أن تستجيب له".

وهي نظرية مادّية بحتة تقول للشاب الجائع: كُلْ شيء حتى الممنوع، وللشاب العطشان: إشرب كلّ شيء حتى المحرّم، فهي تعلّمه كيف يستجيب لشهوته دون النظر إلى الوسيلة التي تشبع بها تلك الشهوة، ودون حساب لما يتربّ على انكابه وتهاجمه على شهواته من تحطّم شخصيته وانسحاق إرادته أمام اللذّة. جاء في الحديث الشريف: "لا ينبغي أن يكون للمؤمن حاجة تذللّه".

وقد يؤدّي إشباع شهوة دون تفكّر والتزام إلى حرمان الإنسان من نعم كثيرة أو الابتلاء ببلاء أو مرض أو مشاكل مستعصية، وقد قيل: "وكم من شهوة أورثت ندماً كثيراً".

يوسف (ع) يقول لنا كشّاباً: إنّ مواجهة الإغراء صعبة لا يفلت من قبضتها إلا مَنْ بنى شخصيته الإيمانية بناءً واعياً ورصيناً بحيث يتدبّر عاقبة الأمر، فإن كان رشدًا أمضاه وإن كان غياً انتهى عنه. ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليطلب منه أن تتأسى بيوفوس لو كان التأسي به مستحيلاً (لا يُكَاتِلُ فَاللَّهُمَّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة/ 286).

فكيف إذاً نواجه الإغراء؟

المواجهة تتمّ بأحد أمرين:

- الابتعاد - مهما أمكن - عن الأجواء المشحونة بالإغواء، المفرية بالمعصية، المشجّعة على الوقوع في مستنقع الرذيلة. ورد في الحديث: "الشبهات حمى الله ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه".

وإذا حاصرتنا تلك الأجواء، فإذا نهرب منها إلى الله، فهو ملاذنا الآمن، تماماً كما فعل يوسف (ع). والهروب إلى الله يتمّ بمعرفته ومخالفته وطاعته ورجائه والثقة به والتوكّل عليه.

ف(يوسف) هذا الشاب (وَلَمْ يَلْعَمْ أَشْدَادْهُ) (يوسف/ 22)، والأسدّ استكمال القوّة الجسدية والعقلية، يواجه الإغراء المحموم في سنّ تفتح غريزته وشهوته باللجوء إلى الله لا ولا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) (يوسف/ 24)، بتدبر عاقبة الإقدام على الفحشاء (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (الأعراف/ 201).

فالمؤمن الصادق الإيمان قد ترتسم غشاوة أمام عينيه، لكنّه بخلاف غيره من المستجيبين استجابة عمياء للإغراء ونداء المعصية، سرعان ما يزيح تلك الغشاوة عن عينيه ليعود بصره حادّاً يرى الأشياء بأحجامها رؤية واضحة.

واللجوء إلى الله في مثل هذه المواقف لجوء إلى ركن وثيق (كَذَلِكَ لَنْصُرْفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) (يوسف/24). وهذا كلّه يجري ضمن معادلة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد/11).

ابعد عن الفحشاء والمنكر متراً يبعدك الله عنه ميلاً.. صن نفسك من الحرام في لحظة الإغراء، يَنْدَدْ الله في صدرك وصلاحتك ومقاومتك وما نعتك بما لا تحبس به.. إهرب إليه يحتضنك ويرعاك.. استعن به في المواقف الحرجة يمدك بعونه ولطفه.. إِنَّه يجعل لك مخرجاً.

ولهذا يرى بعض المفسّرين لقوله تعالى: (لَنْصُرْفَ عَنْهُ السُّوءَ) أنَّ الصّرف عن السُّوء والفحشاء ليس أمراً بعيداً عن حرّية الإرادة والاختيار. فالله تعالى لم يجبر (يوسف) على الابتعاد عن المعصية، بل أثار أمامه الأفكار التي تبعده عنها بشكل تلقائي، وهي الالتزام بشريعته والانسجام مع خطوط هذه الشريعة.

وثمة سؤال مهم: لماذا فضل السجن على ارتكاب الفاحشة (رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا يَدْعُونَ) (يوسف/33)?

إنَّ ارتكاب الفاحشة، والاستجابة للإغراء، وممارسة الجنس بشكل محظوظ، يمكن أن يمثل عند بعض الشبان والفتيات نوعاً من أنواع الحرّية. والسجن كما هو معروف حجز وحجب لتلك الحرّية. لكنَّ (يوسف) كما يرى بعض المفسّرين يوازن بين حرّية الجسد في خط الشيطان وحرّية الروح في خط الرحمن، فيختار الثانية لأنّها أحبُّ إليه، بما يحمل في داخله من معرفة بالشيطان، وبالحلال وبالحرام، وبالاستقامة وبالانحراف.

متى يكون (السجن) أحبُّ إلينا من (الحرّية)؟

عندما تأسّنا الحرّية لتحليلنا إلى عبيد لشهواتنا المحرّمة وغرائزنا المنفلترة وزرواتنا الطائشة، وإذا ذاك لا تكون حرّية وإنما قيد يكبلنا ويسلِّم إرادتنا ويسحق شخصيتنا بأقدام الذلّ. ورد في الحديث: "فَوَمَّا كُلِّمَ اللَّهُمَّ أَمْرُكَ لِمَؤْمِنٍ أَمْرُهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِيلًا".

وباختصار، فإنَّ المقاومة للإغراء لا تأتي إلا من خلال بناء متين للمحتوى الداخلي لشخصية الشاب أو الفتاة، أي أنّها تأتي نتيجة خطة تربوية إيمانية متكاملة. من خلال الالتزام بالصلوة والصلوة.. وغيّرها من الفروض الدينية، وكذلك قراءة القرآن والدعاء وذكر الله على أيّ حال، فإنَّ هذه جميعاً تنمو في الإنسان الإيمان وتقوي إرادته في مواجهة الشيطان، قال تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَذْهَبُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْذِكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) (العنكبوت/45).

فعملية الرّفض كانت دائمًا نتاج روح عتيدة وأبية يراقب فيها العبد ربّه، ويتمرّد معها على النوازع الذاتية، والعوامل الخارجية التي تريد أن تحرّكه عن الخط المستقيم.

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا لَكُمْ عَدُوٌ فَمَا تَعْمَلُو هُمْ عَدُوٌ) (فاطر/6).

(إِنَّ كَيْدَهُمْ كَيْدُهُمْ كَمَا كَيْدُهُمْ كَمَا كَيْدُهُمْ) (النساء/76).

(لَا تَتَبَعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَتَّبِعُ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْذِكَرِ) (النور/21).

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا لِإِنْسَانٍ عَدُوٌ مُّبَيِّنٌ) (يوسف/5).

قد يقول شاب يعيش الإغراء المعاصر والمحاصر بكل لوانه وأشكاله إن "يوسف) إذا كان محامـراً بإغراء (زليخا)، فإنـنااليوم محاصرون بإغراء أكثر من زليخا، فإلى أين المهرـ؟ وما هو السـيل إلى النـجاـة؟

دعونـا إذاً نـتـوجه إلى (سـورـة النـورـ) فهي تـتكـفـلـ الإجـابةـ عنـ هـذاـ السـؤـالـ.

فـمنـ الـخطـأـ أـنـ نـتـصـوـرـ أـنـ هـذـهـ السـورـةـ تـوجـهـ خـطاـبـهاـ إـلـىـ الـفـتـيـاتـ فـقـطـ،ـ فـهـيـ وـاضـحةـ وـصـرـيـحةـ فيـ تـوجـيهـ الـخـطـابـ لـلـجـنـسـيـنـ مـعـاـ:ـ (الـزـَّانـيـةـ وـالـزـَّانـيـ)ـ (الـنـورـ/ـ2ـ)،ـ وـتـوـقـعـ الـعـقـابـ عـلـيـهـمـاـ مـعـاـ:ـ (فـَاجـلـدـواـ كـُلــاـ وـاحـدـيـ مـنـهـمـاـ)ـ (الـنـورـ/ـ2ـ).

إنـ أـهمـيـةـ (سـورـةـ النـورـ)ـ تـتـحـلـ فيـماـ تـدـعـوـ إـلـيـهـ مـنـ تـهـيـئـةـ الـأـجوـاءـ الـطـاهـرـةـ وـالـأـرـضـيـةـ الـصـالـحـةـ الـتـيـ تحـولـ دونـ الـوقـوعـ فيـ الـانـحرـافـ،ـ أيـ أـنـهـاـ تـعـمـلـ عـلـىـ زـرـعـ مـنـاعـةـ دـاخـلـيـةـ فيـ نـفـسـ الشـابـ وـالـفـتـاةـ..ـ إـنـهـاـ سـورـةـ التـطـعـيمـ ضـدـ الـفـحـشـاءـ.

1- النـظـرـ وـالـسـترـ:

قالـ تـعـالـىـ:ـ (قـُلـ لـلـمـؤـمـنـ يـغـصـبـهـ وـيـأـجـفـطـهـ وـفـرـجـهـمـ دـلـكـ أـرـكـيـ لـهـمـ إـنـ اللـهـ خـبـيرـ بـهـمـاـ يـصـنـعـهـونـ *ـ وـقـُلـ لـلـمـؤـمـنـاتـ يـغـصـنـهـ مـنـ أـبـصـارـهـنـ وـيـأـجـفـطـهـنـ فـرـجـهـنـ وـلـاـ يـبـدـيـهـنـ إـلـاـ مـاـ طـهـرـ مـنـهـاـ وـلـاـ يـضـرـبـهـنـ بـخـمـرـهـنـ عـلـىـ جـيـوـبـهـنـ وـلـاـ يـبـدـيـهـنـ زـيـنـتـهـنـ إـلـاـ لـبـعـولـتـهـنـ أـوـ آيـائـهـنـ أـوـ أـبـدـائـهـنـ أـوـ أـبـدـائـهـنـ أـوـ أـبـدـائـهـنـ أـوـ إـخـوـانـهـنـ أـوـ بـنـيـهـنـ إـخـوـانـهـنـ أـوـ بـنـيـهـنـ أـوـ إـخـوـاتـهـنـ أـوـ نـسـائـهـنـ أـوـ مـاـ مـلـكـتـهـنـ أـيـمـانـهـنـ إـنـ أـوـ التـسـابـعـيـنـ غـيـرـيـ أـولـيـ الـإـرـبـةـ مـنـ الـرـجـالـ أـوـ الطـفـلـ أـوـ الـنـسـاءـ وـلـاـ يـضـرـبـهـنـ بـأـرـجـلـهـنـ لـبـعـولـمـ مـاـ يـخـفـيـنـ مـنـ زـيـنـتـهـنـ وـتـوبـواـ إـلـىـ اللـهـ جـمـيعـاـ أـيـشـهـاـ الـمـؤـمـنـونـ لـعـلـكـمـ تـفـلـجـونـ)ـ (الـنـورـ/ـ30ــ31ـ).

هـذـاـ إـجـراءـ اـحـتـراـزـيـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ أـجـوـاءـ الـعـفـةـ وـالـحـشـمةـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـمـسـلـمـ،ـ وـهـوـ إـجـراءـ يـضـعـ المـسـؤـلـيـةـ عـلـىـ عـاـتـقـ الـجـنـسـيـنـ مـعـاـ،ـ فـالـسـتـرـ هـوـ مـسـؤـلـيـةـ الـفـتـاةـ أـوـ الـمـرـأـةـ الـمـسـلـمـةـ فـيـ الـمـقـامـ الـأـوـلـ،ـ وـغـصـ الـبـصـرـ هـوـ مـسـؤـلـيـةـ الـفـتـىـ أـوـ الـرـجـلـ الـمـسـلـمـ بـالـدـرـجـةـ الـأـوـلـىـ.

فـإـظـهـارـ الـفـتـاةـ أـوـ الـمـرـأـةـ زـيـنـتـهـاـ،ـ وـخـروـجـهـاـ بـالـمـلـاـبـسـ الـمـثـيـرـةـ الـتـيـ تـكـشـفـ أـوـ تـصـفـ بـعـضـ أـجـزـاءـ جـسـدهـاـ كـالـذـرـاعـيـنـ وـالـسـاقـيـنـ وـالـعـنـقـ وـالـرـأـسـ وـالـصـدـرـ يـخـلـقـ حـالـةـ مـنـ إـثـارـةـ غـرـائـزـ الشـبـانـ وـالـرـجـالـ مـاـ قـدـ يـدـفعـهـمـ إـلـىـ اـرـتـكـابـ جـرـائمـ أـخـلـاقـيـةـ رـبـمـاـ لـمـ تـكـنـ لـتـرـكـبـ لـوـ أـنـ الـفـتـاةـ أـوـ الـمـرـأـةـ الـمـسـلـمـةـ التـرـمـتـ السـتـرـ الـشـرـعـيـ .ـ وـلـذـلـكـ حـدـدـ ١٠ـ وـهـوـ الـخـبـيرـ بـمـاـ يـصـلـحـ الـجـنـسـيـنـ وـبـفـسـدـهـمـاـ -ـ إـبـدـاءـ الـزـيـنـةـ فـيـ حـدـودـ الـعـلـاقـةـ الـشـرـعـيـةـ (ـالـزـوـاجـ)ـ فـقـطـ (ـوـلـاـ يـبـدـيـهـنـ زـيـنـتـهـنـ إـلـاـ لـبـعـولـتـهـنـ)ـ (ـالـنـورـ/ـ31ـ).ـ وـفـيـمـاـ سـمـحـ بـهـ مـنـهـاـ لـغـيـرـ الـأـزـوـاجـ:ـ (ـوـلـاـ يـبـدـيـهـنـ زـيـنـتـهـنـ إـلـاـ مـاـ طـهـرـ مـنـهـاـ)ـ (ـالـنـورـ/ـ31ـ)،ـ فـيـ الـوـجـهـ وـالـكـفـيـنـ.

وـقـدـ جـاءـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ (ـوـلـاـ يـضـرـبـهـنـ بـخـمـرـهـنـ عـلـىـ جـيـوـبـهـنـ)ـ (ـالـنـورـ/ـ31ـ)ـ للـتـأـكـيدـ عـلـىـ أـنـ الـصـدـرـ مـنـطـقـةـ مـثـيـرـةـ جـنـسـيـاـ،ـ وـأـيـ كـشـفـ لـهـاـ يـهـيـجـ غـرـيـزةـ الـنـاطـرـ،ـ فـلـابـدـ مـنـ سـتـرـهـ،ـ لـتـغـطـيـتـهـ فـحـسـبـ بـلـ وـاجـتـنـابـ الـمـلـاـبـسـ الـتـيـ تـبـرـزـ مـلـاـمـحـهـ،ـ فـرـبـ تـورـيـةـ أـبـلـاغـ مـنـ تـصـرـيـحـ.

وـكـمـاـ حـذـرـ المـشـرـعـ الـإـسـلـامـيـ مـنـ عـاـمـلـ آخرـ مـنـ عـوـاـمـلـ الـإـثـارـةـ هـوـ تـرـقـيقـ الصـوتـ الـأـنـثـويـ وـتـنـعـيـمـهـ بـحـيثـ يـسـتـثـيـرـ غـرـيـزةـ الـغـرـيـزةـ السـامـعـ مـنـ الشـبـانـ وـالـرـجـالـ بـمـاـ يـحـمـلـهـ مـنـ إـيـجـاءـ جـنـسـيـ (ـفـلـاـ تـخـضـعـنـ بـالـقـوـلـ فـيـ طـمـمـعـ الـلـذـيـ فـيـ قـلـبـهـ مـرـضـ)ـ (ـالـأـحـزـابـ/ـ32ـ)،ـ نـرـاهـ هـنـاـ يـعـذـرـ مـنـ الـأـصـوـاتـ الـمـنـبـعـةـ مـنـ الـخـلـالـ وـالـعـقـدـ وـالـأـسـاوـرـ وـالـأـقـرـاطـ لـأـنـهـاـ تـلـفـتـ الـنـظـرـ إـلـىـ مـوـاضـعـهـنـ مـنـ جـسـمـ الـمـرـأـةـ وـلـيـسـ فـقـطـ بـمـاـ يـبـعـثـنـ مـنـ أـصـوـاتـ مـوـسـيـقـيـةـ تـجـذـبـ الـسـمـعـ.ـ فـكـمـاـ أـرـادـ هـنـاكـ إـنـقـاذـ الـنـظـرـ وـوـقـايـتـهـ أـرـادـ هـنـاـ إـنـقـاذـ السـمـعـ وـوـقـايـتـهـ عـلـىـ اـعـتـبارـ أـنـهـمـاـ نـاـفـذـتـانـ تـطـلـانـ بـشـكـلـ مـباـشـرـ عـلـىـ فـنـاءـ[ـ1ـ]ـ الـغـرـيـزةـ.ـ (ـوـلـاـ يـضـرـبـهـنـ بـأـرـجـلـهـنـ لـبـعـولـمـ مـاـ يـخـفـيـنـ مـنـ زـيـنـتـهـنـ)ـ (ـالـنـورـ/ـ31ـ).

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتَسْلِمُوا عَلَىٰ هَلْكَمْ لَعَلَّهَا ذَلِكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ لَكُمْ أَرْجُعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِمْ) (النور/ 27-28).

أدب الإسلام أبناءه، على رعاية وحفظ كراماتهم وحرّياتهم، كما حثّ على الالتزام بالأخلاق والطبيقات الاجتماعية التي تنظم أوضاع الناس وطريقة تعاملهم مع بعض، والبيوت بما تمثل من الأماكن الآمنة التي يجد فيها أهلها حرّياتهم، لها حرمتها. فمن عادة الزوجة أو الزوج أن يتخففاً من ملابسهما، وأن تظهر المرأة بزيتها، وقد تأخذ جلستهما أو منهما أوضاعاً معينة، كما أنّ البناء يكنّ عادة سافرات ويرتدن ما لا يرتدينه في حال خروجهنّ، فأيّ اختراق لهذا الجوّ دون استئذان، يقع نظرات الداخل على ما لا يريد أهل الدار أن يطلع عليه.

ولذلك فالاستئذان إشارة وتنبيه إلى سكان البيت أن حتشموا أو استتروا، وهو إجراء احترازي آخر لضمان العفة داخل البيوت كما هي الحاجة لضمانها خارج البيوت.

والاستئذان ليس فقط من قبل الداخل الغريب أو الأجنبي الذي لا يحلّ له الإطلاع على عورات البيوت، بل تشير آيات أخرى في (سورة النور) إلى ضرورة استئذان الخادم أو الخادمة أو المربية والأطفال المميزين في حال الدخول إلى غرف النوم التي تمثل فرض الخلوة بين الجنسين، فلا يجوز اعتبار هؤلاء من أصحاب الدار وعدم التحفظ نتيجة لهذا الإحساس الخاطئ.

3- حفظ الفروج:

(وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) (النور/ 30)، (وَيَحْفَظُنَّ فُرُوجَهُنَّ) (النور/ 31).

المقصود هنا هو حفظ الفروج من الزّنا، أي من العلاقة الجنسية المحرّمة. فلقد أراد الله تعالى للعلاقة الجنسية أن تتم في إطار العلاقة الزوجية، وحرّم أيّة علاقة خارج هذا الإطار. وقوله تعالى: (ذَلِكَ أَرْكَانَهُمْ) (النور/ 30)، تبيان للغرض من هذا التشريع، أي أنّ المراد هو تحقيق أكبر قدر ممكن من العفاف والطهارة الجسدية والأخلاقية.

ونظراً إلى خطورة هذا الخرق الفاضح، وحفاظاً على أجواء العفة في المجتمع، نرى أنّ الله سبحانه وتعالى يطالب بمعاقبة الزاني والزاني عقاباً شديداً لا رأفة فيه (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّهُمَا حَتَّىٰ يَذَكَّرَ وَلَا تَأْخُذُوهُمَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُذِنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْآخْرَ وَلَيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) (النور/ 2)، ليتردع الزناة من تكرار الفعل الشنيع مستقبلاً، ولتتعظ الطائفة من المؤمنين.

واعتبر القرآن الزّنا حالة شذوذ جنسي لا يمارسها إلا الذين عرّفوا بالزّنا والمشركون من الناس، أمّا المؤمنون فلا يقررون هذه الفاحشة، أو هكذا يفترض بهم إيمانهم الذي يريد لهم علاقات جنسية نظيفة (الزَّانِي لَا يَذْكُرْ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَذْكُرْهَا إِلَّا زَانِي أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمَةً ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (النور/ 3).

فكما حرّم الإسلام الدم والميتة ولحم الخنزير والخمر والميسر، واعتبر ذلك رجساً من عمل الشيطان ودعا إلى اجتنابه، كذلك حرّم الزّنا كعلاقة غير شرعية سواء في بدايتها وما يمهد لها من مقدّمات الانحراف، أو أثناء سيرها في المعاشرة المحرّمة، وحتى في نهايتها مما قد يترتب على نتائجها من أولاد الزنا.

فالشرع في الإسلام هو الحاكم وليس الحالة المزاجية أو التقدير الذاتي للأشياء، وهو إذ يتدخل لمنع الفساد أو الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لا يحدّ ولا يقلّ ولا يمادر حرّيّة الإنسان، إنما يضعها في المكان الصحيح الذي لا يجعلها سائبة أو منفلتة أو فوضوية. إنّه يرخي لها العنان حتى إذا أرادت اقتحام المناطق المحرّمة سجّبها أو جذبها إلى المناطق المحالّلة (تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا) (البقرة/ 187).

فالتشريع الإسلامي يحاول إغلاق كلّ المنافذ التي يتسرّب أو يتسلّل الشيطان منها، ويمنع الميكروبات التي تلوّث أجواء العفة بين الجنسين. فيتهدّى عن حالة الفتيا الصالحة اللواتي يرفضن أيّة علاقة جنسية مشبوهة أو منحرفة ويفسّرنهنّ إلا أن يعملن بما أراده الله لهنّ، لكن آباءهنّ وأمّهاتهنّ وربّما إخواتهنّ أحياناً يجبرونهنّ على خلع ثوب العفاف ابتغاء مكافحة مالية أو دنيوية منحطّة، فيبدّلّ من أن يكونوا المعينين على زيادة إيمان بناتهنّ بضرورة الستر والعنف وحفظ فروجهنّ، إذا بهم يدفعونهنّ دفعاً إلى أحضان الرذيلة وهتك أستار العفة. وهذا ما قد نلاحظه في زوجهنّ بالأجواء المفترضة حتى تقع عليهنّ مزايدات المزايدين من تجّار اللّاحوم البشري.

وقد لا يجد الشاب أو الفتاة الفرصة المناسبة للزواج، فماذا يصنعان في هذه الحالة؟

من هنا أيضاً جاء النهي عن إكراه الفتيا المتخصصّات بالعفة والاحتشام، وسلوك الطريق الصحيح للعلاقة الشرعية، على البغاء (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَبَيَّنَ كُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَرَحَّصْنَدَا لِتَبَيَّنَهُوا عَرَضَ الْجَيَّاهَ الدُّرْزِيَّا وَمَنْ يُكْرِهُنْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (النور/ 33).

يقول تعالى: (وَلَيَسْتَعْفِفَ الرَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُمَّ مِنْ فَضْلِهِ) (النور/ 33). إنّ عدم الاستطاعة لتحسين الفرج بالزواج لا يكون مبرراً للانفلات وتعدّي الحدود الشرعية، بل لابدّ من التزام العفة ريثما تتغيّر الظروف الضاغطة وتزول المواتي المعيقة.

إنّ خيار التعفّف لا شكّ خيار صعب لأنّه يستلزم نوعاً من الصّبر لا يقدر عليه إلا شاب يعيش حقيقة الإيمان، وفتاة تستند إلى تربية وروحية عالية "مَنْ استطاع منكم البقاء فليتزوج ومن لم يجد فعليه بالصوم فهو له وجاء" [2]. فالتعفّف كأيّ صوم آخر يربّي الشخصية وينمنحها القدرة على مقاومة الانحراف ونداء الشهوة حتى يحين موعد الإفطار.

ولو كان التعفّف مطلباً يتعدّر تحقيقه لما دعا إليه الله الذي لم يجعل في الدّين من حرج. ولعلّ ما يرفع الاستحالة هنا ما نقرأه من انتشار ظاهرة العفة والعذرية في أواسط الناشئة من المراهقين والشّباب من كلا الجنسين في بعض بلاد الغرب التي تفتح الأبواب مشرعة لكلّ انحراف.

فلقد لاحظت دراسة ميدانية نشرتها جريدة (لابرس) الكندية في 15/ آب/ 2001 أنّ الكثير من هؤلاء الذين تراوحت أعمارهم بين (15) و(20) سنة، لم يقيموا أيّة علاقات جنسية، بل ويتوقفون إلى الزواج الديني، كما أشارت إلى أنّ قسماً كبيراً منهم ينخرط في مؤسسات دينية أو اجتماعية، أو فيما يسمّى بحركات (أنصار العذرية).

ويقول الخبير الكندي في التربية الجنسية (هيغوديماس): "من اللافت أن نرى في مجتمعنا اليوم مراهقين ومراهقات يتمسّكون بالعفة. وإنّ ما يثير الاعتزاز أنّهم يستعملون عبارات وألفاظاً تدلّ على الحشمة مثل الحبّ البريء، والعذرية المقدّسة والزواج الشرعي" [3].

وتوكّد نشرة (أميركان جورنال أوف سوسبيولوجي) أنّ 50% من الفتيا اللواتي يواطّبن على حضور القدس الدين يحتفظون بعذرتهنّ حتى سنّ العشرين خلافاً لغيرهنّ ممّن يفقدن عذرتهنّ في سنّ الخامسة عشرة.

وممّا يلفت النظر أنّ طيباً في مدينة (كيبيل) الكندية اسمه (ميشار روبيلا) كان قد أنشأ في تشرين أول 2000 حركة أطلق عليها اسم "عفة كيبيل" تنادي في دعوتها بالعفة والعذرية. وقد نوّه رئيسها بالفتيا المسلمين اللّواتي يحافظن غالباً على العفة ويتمسّ肯 بعذرتهنّ إلى يوم الزفاف من منطلق إيماني ومسؤولية الزوجة الصالحة في تربية أبنائهما، واحترام القيم والمثل الاجتماعية السائدة !!

أمّا الطالبة الأميركيّة (تشيري أبنيك) (19 سنة) فتؤكّد على تأثير العامل الديني كمُهِّن، فتقول: "إنَّ الصلاة والإيمان بهذه بُنْيَةِ العُيُونِ بين الجنسين، والعنف هي الطريق الصحيح للزواج. فالآباء الذين يولدون من أبوين شرعيين يحظون بالعطاف والمحبّة خلافاً للذين يولدون من أبوين مجهولين استجابة لنزوة جنسية عابرة" [4].

إذا كان هذا حال من يعيش الفوضى الجنسيّة وانفلات القيم، فما بال شبابنا وفتياتنا الذين يضرّ الطبيب الكندي بهم المثل.

يقول عليّ (ع): "مَنْ اعْتَدَلَ طَبَاعَهُ صَفَّا مَرَاجِهِ، وَمَنْ صَفَّا مَرَاجِهِ قَوِيَّاً أَثْرَ النَّفْسِ فِيهِ".

وقال عليّ بن الحسين (ع): "مَا ضَعَفَ بَدْنُكَ عَمَّا قَوَيْتَ عَلَيْهِ النَّيْةَ".

- التوافق بين الجنسين:

يقول تعالى: (الْخَبَرِيَّاتُ لِلْخَبَرِيَّاتِ وَالْخَبَرِيَّاتُ لِلْخَبَرِيَّاتِ وَالطَّيْرِيَّاتُ لِلطَّيْرِيَّاتِ وَالطَّيْرِيَّاتُ لِلطَّيْرِيَّاتِ) (النور/ 26).

ويقول: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَ مِنْ كُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادَكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءٍ يُغْنِهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ وَاسْعِ) (النور/ 32).

وهذا احتراز آخر لتوفير الأجواء الحالية من التلوّث والغبن والإجحاف وسوء الاختيار. فعلى الإنسان المسلم أو المؤمن أن يختار فتاة أو امرأة مسلمة أو مؤمنة تتجلّس معه في دينه وفي أخلاقه، حتى يقتربن بالإيمان بالإيمان، والأخلاق بالأخلاق، والالتزام بالالتزام، والصلاح بالصلاح، مما يُمهّد الأرضية لبناء أسرة صالحة يعيش فيها الزوجان والأولاد استقراراً نفسياً، وأماناً عاطفياً وروحيّاً وفكرياً وسلوكيّاً، وهذا هو مغزى الحديث الشريف: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير". ومغزى الحديث الآخر: "عليك بذات الدين تربّت يداك".

هذه هي (سورة النور).. سورة الأجواء العفيفـة النظيفة.. فيجب أن لا نعلّـمها لفتياتنا فحسب بل لفتياـنـا أيضاً. ولا بدّـ من الالتفات إلى أنَّ هذا العلاج التشريعي لم يوضع من قبل أحدـائي في العلاقات الجنسيـة، أو خبير في شؤون المرأة والرجل، وإنـما هو قواعد وأسس وضوابط وضعها خالق المرأة والرجل، أيـ العارف بدقةـ العلاقة ما ينظـمـها وما يربـكـها وما يصلـحـها وما يفسـدـها. إنـهـ البرنامج المـعـدـ لكلـ الأمـاـكـنـ ولكلـ العـصـورـ، والـذـي يـغلـقـ كلـ المناـفذـ المؤـدـيـةـ إلىـ الـوقـوعـ فيـ الحرـامـ والإـسـاءـةـ إلىـ وـاقـعـ الـعـلـاقـاتـ بـيـنـ الجـنـسـيـنـ.

الطريق إلى الطهارة:

إنَّ ما يدعـوـ إلىـ الأـسـفـ أنَّ مجـتمـعاـتنا طـرـحتـ الكـثـيرـ منـ قـيمـهاـ وأـخـلـاقـهاـ جـانـبـاـ والـتـزـمتـ قـيمـ الغـربـ البعـيدةـ عنـ رـوـحـ الإـسـلامـ وـخـطـهـ المـسـتـقـيمـ، فـنـحنـ نـشـهـدـ أـشـكـالـ مـخـلـفـةـ منـ الشـعـارـاتـ وـالـدـعـوـاتـ إـلـىـ التـفـسـخـ وـالـانـحلـالـ، فـأـجوـاءـ اـخـتـلاـطـ الـجـنـسـيـنـ أـدـدـتـ إـلـىـ أـنـ يـصـعـفـ الـحـيـاءـ عـنـ الـفـتـاهـ وـالـعـفـافـ عـنـ الشـابـ سـوـاءـ فـيـ الـمـدـارـسـ الـمـخـتـلـطـةـ وـالـنـوـادـيـ وـالـأـعـيـادـ وـحـفـلـاتـ الـأـعـرـاسـ الـمـخـتـلـطـةـ.

إنـهاـ الفـرـصـ المـفـتوـحةـ عـلـىـ الـكـلـمـاتـ الـتـي تـخـدـشـ الـحـيـاءـ، وـالـنـظـرـاتـ الـمـرـيـبـةـ الـمـتـلـذـذـةـ، وـالـأـجـسـادـ النـصـفـ عـارـيـةـ، وـالـمـلـابـسـ الـفـاتـنـةـ الـمـثـيـرـةـ، وـالـحـرـكـاتـ الـتـي تـشـعـلـ الرـغـبـةـ، وـالـابـتسـامـاتـ الـمـوـحـيـةـ الـمـغـرـيـةـ.

إنَّ اـجـتـنـابـ ذـلـكـ وـتـحـاشـيـهـ وـالـبـتـعـادـ عـنـ يـشـكـلـ نـصـفـ الـطـرـيقـ إـلـىـ الـعـفـةـ وـالـطـهـارـةـ، فـمـنـ حـامـ حـولـ

الحمد لله أشك أن يقع فيه.

ثم "أزنا" ونحن نتحدّث عن فوران الغريرة الجنسية عند المراهق، ننسى أن "الجوانب الروحية لدى الشباب تنمو وتنتعش في هذه المرحلة أيضاً" لدرجة يمكن أن يعيش الشاب مكارم الأخلاق والفضائل الإنسانية في أروع صورها، حيث يرى علماء النفس أن "تمة علاقة بين البلوغ وظهور المشاعر الدينية، لكن" فساد الواقع هو الذي ضيّع الاهتمام بهذا الجانب وصبّ" الاهتمام على ذلك الجانب.

إن" الصحبة الصالحة.. الشاب مع شاب مؤمن خلوق.. والفتاة مع فتاة متديّنة عفيفة له أكبر الأثر في نمو" الجو" الإيماني الطاهر الذي يشدّ بعضه أزر بعض.

إن" مثل العفة القرآني لكل" شاب وفتاة هو ما جرى بين (موسى) (ع) وبين ابنته شعيب.. فلقد أبت غيرته على العفاف أن يترك فتاتين شابتين تزاحمان الرجال في السقي، فتطوّع ليقوم بذلك بدلاً منهما.

وحينما تأتيه ابنة شعيب لتدعوه إلى بيت أبيها ليدفع له أجر ما سقي لهم إنّما تأتيه ماشية على استحياء، ويسير هو أماها لتسير خلفه لئلا تقع نظراته على أجزاء جسدها.

عفة شاب وعفة فتاة.. تلك هي الطهارة الاجتماعية التي نبحث عنها ونعلم يقيناً "أزك" أيّها الشاب قارئ هذه الكلمات.. وأنت أيّتها الشابة قارئة هذه السطور ستعملان بصدق على توفيرها.

الهوا مش:

[1] - الفناء: ساحة الدار.

[2] - وجاء أي وقاية من الانحراف.

[3] - صحيفة (الحياة) : 28 / آب / 2001.

[4] - المرجع السابق نفسه.